وسار في وجهة المنزل وكأنه يريد أن يبتعد منه لا أن يدنو إليه بخطاه، وفي يده حقيبة صغيرة لا يدري ماذا يصنع بها، ويزعم أنه يود لو ألقاها في عرض الصحراء لولا ما فيها من حديثٍ يصونه عن الإفشاء ... يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر أن ساطيًا لو سطا على الحقيبة في تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام.

ثم دخل المنزل وتهافت على أقرب كرسي في أقرب حجرة، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادمًا من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات ...

وكان في المنزل عشير قديم يعلم أين ذهب ومن أين عاد، فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه: علامَ أنت آسف يا صاح؟ هل تركتَ فيها من بقيةِ وطرٍ تشتهيها؟ هل عندها من متعةٍ لَمْ تستوفِ شبعك منها؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاتها بعد أن نعمت بروحها ولبابها؟

عزاءٌ حسنٌ حين تكون المرأة التي تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة منها، أما حين تكون جزءًا من الحياة لا تنفصل إلا فصلت معها من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها، فذلك أضعف العزاء، بل هو نقيض العزاء.

إنما يعزيك الزميل الذي تحسه قريبًا بشعورٍ مثل شعورك، ولقد يغنيك من عزائه إحساسك بقربه ساعتئذٍ وهو صامت واجم، دون كلام ولا إيماء.

أما الكلام الذي سمعه همام من صاحبه وهو في جواره فقد تركه يصغي إليه كأنه يتسمَّع ألفاظًا مغلقةً من هاتفٍ لا يراه.